بين الرجاء واليأس

الاستاذ محمد مجذوب أديب شهير وقصاص معروف . له آثار قيمة ولقلمه لون بارز تقرأ منه النكتة البديعة واللفتة السريعة ؛ وقد عود قراءنا أن يتحفهم بمنتوجه وقصصة الممتع كما تقرأ له الآن .

« البيان »

كان « أبو علي » يتلقى سخرية رفاقه بكثير من الألم المكتوم ، وقد سبق أن ألف منهم مثل ذلك طوال ستة أشهر في المدينة ، فهم لا يكادون يرونه في مقهى أو يقعون عليه في طريق حتى يستقبلوه بهذه العبارات : « كيف جماعة الطميرقية ؟ ! كيف أصحابك الطميرقيون ؟ . . . لا تحزن يا أبو علي هذه حال الدنيا . . من هالك لمالك انقباض الأرواح . » ! الى آخر ما هنالك من أشباه هذا الكلام المبطن ، ولكنه كان مستطيعاً أن يتحكم في أعصابه فلا يبدو عليه أي امتعاض من ذلك ، وقد ساعده على هذا التجلد برودة مزاجه وبساطة تعابيره فلا يزيد عن أن يردد لهم قول المثل الآخر : « اعمل الخير وأرم في البحر » على أنه كان في الواقع يطوي ضلوعه على قلق كثير وجزع مرير . . ولكنه آثر مع ذلك أن يكبس الجرح بالملح فلا يتيح لهم أن يتزيدوا من شماتتهم به .

وهاهو ذا الآن يجد نفسه مرة أخرى فريسة لهذا التقريع الممض ، وقد أصبح من النوع الذي لا يطاق إذ كان في الماضي يتلقاه من الواحد أو الاثنين في فترات متقطعة . . أما اليوم فقد جمعتهم الظروف في موضع واحد فجعلت منهم جبهة متحدة عليه .

لقد خرج « أبو علي » مع هؤلاء الجماعة من زملائه التجار ليحصلوا ديونهم من زبائنهم في هذه الضواحي حسب عادتهم في مطلع المواسم ، وقد جعلوا يتنقلون من قرية الى قرية فيستقبلهم هؤلاء بالضيافة الكريمة وبالأموال المستحقة عليهم مقرونة بكثير من الثناء ، وكان لأبي علي مقدار لا بأس به من الديون في بعض هذه القرى فساهم بحصته من هذا النجاح ولكنه كان الى جانب ذلك عرضة للتنغيص المستمر فهم لا يكادون يخلون للمبيت حتى يجدوا في قضيته مادة لسمر طويل لا ينتهي إلا بأن يعقل النوم ألسنتهم ؛ ولما بلغوا مرحلتهم الاخيرة في قرية « الاندروسة » بجوار « الشيخ بدر » أحيوها ليلة ساهرة تفننوا فيها باختراع النكات الجارحة لقلبه وقد انقسموا فريقين أحدهما للهجوم والآخر للدفاع فاذا أرسل الاول سخريته اللاذعة من من غباوة « أبو علي » نهض الثاني لردها بنكتة أشد لذعا . ! ظاهرها الانتصار له وباطنها التهكم منه وكان مدار الهجوم تعزية أبي علي بخسران الذهبيات المئتين بينما مدار الدفاع اعتبار هذه الخسارة تضحية مقصودة عمد إليها باختياره وبدافع من الانسانية الخالصة لوجه الله ! !

ولم يجد الرجل قدرة على الصمود بوجه هذه المؤامرة المحبوكة فآثر التظاهر بقبول خطة المدافعين مؤكداً أنه يحتسب ماله صدقة عند الله ، وحسبه أنه كان وسيلة لامناص منها لانقاذ تلك النفوس من براثن الجوع !

وفي الحقيقة لم يعمد صاحبنا الى هذا التظاهر إلا بدافع من القناعة القلبية . . ذلك ان تقديره الخاص كان قد انتهى به الى اليأس من الحصول على ذلك المبلغ ، فهو لا يجهل ما تسامعه الناس من سوء معاملة الطميرقيين ، وهو ليس حديث المعرفة لهذه الشهرة الواسعة التي استحوذوا عليها في سائر هذه المنطقة الممتدة بين أنطاكية وطرابلس ، وهو هو نفسه إذا اراد ان ينكر سوء معاملة من احد الناس لا يجد تعبيراً افصح عن انكاره من قوله له : « وهل نحن في الطميرقية ! »

ترك أبو علي رفاقه غارقين في غفوتهم وانسل الى دابته

يسرجها في كثير من الحذر ، فقد خشي أن يتنبهوا له فيعودوا الى نغميتهم السابقة ليشيعوه بطائفة من تلك السخريات التي ضاق بها صدره رغم سعة صبره ، ولكن القدر أبى عليه هذه النعمة فاذا حماره اللعين يتمطى عن زفرة طويلة يعقبها نهيق صارخ لا يلبث أن تسري عدواه الى رفاقه من الحمير فيتجاوب معه في أنشودة هائلة كانت كافية لطرد النوم عن جفون أصحابه واذاهم يهبون الواحد تلو الآخر لينهالوا على أبي علي بدفعة من تهكمات جديدة تصل ما انقطع من حفلة الليل . . .

ولم يجد صاحبنا من خصم له في هذه المعركة إلا ذلك الحمار الفضاح فأهوى عليه بعصاه يريد أن يشفي صدره ثم اقتاده مسرعا الى الطريق وهو يرفع صوته بهذه العبارة التي أرادها وسيلة للتعبير عن ذات نفسه « تأبى ياملعون أن تفارق إخوانك دون وداع . . ! » وما لبث أن اعتلى ظهره وهو يسمع من رفاقه كلمتهم الأخيرة : « موفق . . . موفق يا أبو علي إن شاء الله . . لاتنس بالله عليك أن تجعل لنا نصيباً في زبائنك الطميرقيين في المستقبل . . ! »

وراح أبو علي يقطع الطريق الضيق المتعرج في سفوح السلسلة الهضبية ، وهو ذاهل عما يمر به هنالك مشغول بالتفكير في خواطره المثارة يتلقى وجهه نفحات السحر باردة ناعمة ، وتتهاوى على أذنيه أصوات الديوك تتجاوب بها آفاق القرى المبعثرة على جانبي الطريق معلنة قدوم النهار دون أن يعي شيئاً من كل ذلك ، فقد غشيته سحابة من شتى الأفكار ما لبثت أن تركزت من خياله حول نقطة واحدة هي هذه المئتان من الليرات العثمانية الذهبية ، . . ووجد نفسه مدفوعا بقوة من وراء الوعي الى هذا التساؤل : « ترى . . أيبلغ الجحود بهؤلاء الطميرقيين الى حد أن ينسوا فضله ويتنكروا له فيبتلعوا هذا الحساب ! ؟ »

وتتابعت على مخيلته صور هؤلاء القوم ليخلص منها الى جواب حاسم . . ولكن عبثاً . . فقد كان في معرض موازنة دقيقة بين ما عرف عنهم من أخلاق شاذة جعلتهم مضرب المثل في إنكار الجميل وبين إحسان كبير تبرع به لانقاذهم من مجاعة محققة . . ، وأخذ يستعرض في ذاكرته مشهد أولئك القوم يوم لقيهم وقد تجمعوا على مقربة من حانوته ناكسي رؤوسهم لا يكاد يرتد إليهم طرفهم يأساً وحيرة . . فدعاهم اليه ثم عرف ما هم عليه من فاقة دفعتهم الى هبوط المدينة رجاء أن يجدوا من تجارها من يسلفهم مقداراً من الطحين يسد رمق عيالهم على أن يوفوه ثمنه في موسم الحرير . . ولكنهم يئسوا من وجود هذا التاجر الذي يغامر بذلك رغم أن مثل هذا البيع بالدين هو مادة معاملات التجار مع معظم سكان هذه القرى التي تتجر مع طرطوس ، ولا سبب لذلك سوى أنهم من « الطميرقية » ! . .

وتذكر أبو علي من جديد كيف كان وقع هذا الموقف على مشاعره اذ وجد نفسه بين حالتين متناقضتين : نزعة إنسانية تدفعه الى النجدة ، وحذر بالغ من عاقبة هذه المغامرة يمسكه عن الاستجابة لصوت العاطفة ، ولكنه ما لبث أن وجد نفسه أخيراً راغبة في المخاطرة مهما تكن عواقبها ، واذا هو يفتح دفتره القديم البالي ليسجل فيه أسماءهم وطلباتهم ، وما كان ليظنها بالغة مثل هذا الرقم الكبير ولكنه صمم على المغامرة ، وأراد أن يطبق المثل القائل : « من شرب البحر لا يغص بالساقية » . . وهكذا شرب أبو علي البحر فعلا ، وأبى حتى أن يكتب بهذا الدين أي سند على القوم ، ففي اعتقاده ان الذي يجرؤ على معاملة الطميرقيين ينبغي ألا يؤثر السند على الدفتر « فما أكذب من الخبر إلا الورق » في مثل هذه الحال ! . .

وترامى الى مسمع الرجل فجأة دوي طبول مقبل عليه من وراء الهضبة المواجهة ثم صفير زمور يختلط مع زقزقة الحجلان المتصاعدة من أعماق الوادي ، فتنبه لشأنه وعاوده الوعي ولم يكن قد خبر الطريق الى الطميرقية من قبل إذلم تصل رحلاته السابقة إلى هذه الانحاء ، وإنما كل ما عرفه عن هذا الطريق هو إشارة عابرة حصل عليها من بعض الطميرقيين الذين لقيهم أمس على ماء الشيخ بدر ، لذلك رأى خيراً في مرور هؤلاء القوم إذ سيتعرف منهم الى موقع القرية فيسلك اليها السبيل الخاصة بها من بين هذه الشعاب